

ثالثاً: اميل دور كايم

لقد أشار "دور كايم" في كثير من كتاباته إلى أن علم الاجتماع لا يستطيع أن يصبح علماً إلا إذا تخلى عن دعواه الأولى في الدراسة الشاملة للواقع الاجتماعي برمته، والا ميز بين مزيد من الأجزاء والعناصر، والجوانب التي يمكن أن تتخذ موضوعات لمشكلات محددة. وقبل فكرة أن دراسة علم الاجتماع يجب أن تختص بطائفة واسعة من النظم والعمليات الاجتماعية.

وتقع معظم أعمال دور كايم في مجال دراسة الظواهر الاجتماعية اللامادية، وما يسميه علماء الاجتماع اليوم المعايير والقيم تعد أمثلة جيدة لما كان يقصده دور كايم بالظواهر اللامادية، ويحدد "جورج ريتز" في كتابه (رود علم الاجتماع) أن أفضل طريقة لتصوير الظواهر الاجتماعية اللامادية على أنها خارجية وتمارس قهراً كالظواهر السيكولوجية، وبهذه الطريقة يمكن القول أن كلاً من الظواهر السيكولوجية وبعض الظواهر الاجتماعية توجد داخل الوعي وبين وعي ووعي، ويقول دور كايم مبيناً ذلك تشكل العقول الفردية للجماعات من خلال الانصهار والامتزاج معاً، ويتولد دوراً أساسياً في علم الاجتماع عند دوركايم لدرجة أنه قام بتقسيمها إلى مستويات من الواقع الاجتماعي على النحو التالي:

أ- الظواهر الاجتماعية المادية:

١- المجتمع

٢- المكونات البنائية للمجتمع "مثل الكنيسة والدولة".

٣- العناصر المورفولوجية للمجتمع "مثل توزيع السكان ووسائل الاتصال"

ب- الظواهر الاجتماعية اللامادية:

١- المبادئ الأخلاقية.

٢- الضمير الجمعي

٣- التصورات الجمعية

٤- التيارات الاجتماعية

القوى الجمعية وتقسيم العمل الاجتماعي:

في كتابه "تقسيم العمل الاجتماعي" أشار دوركايم إلى أن التضامن كان يتخذ طابعاً آلياً أو ميكانيكياً إذ أن الأفراد الذين يشكلون الجماعة ما يزالون يفتقدون الروح الفردية، بالتالي يخضعون أنفسهم للقواعد الاخلاقية العامة، أما في المجتمعات الحديثة التي تتميز بدرجة عالية من التباين فإن هذا التضامن يتخذ طابعاً عضوياً إلى حد كبير -فكل شخص مضطر إلى الاعتماد على الآخرين، وبالتالي فهو مضطر إلى توظيف قدراته من أجل مصلحة الجميع، فالأفراد رغم تمتعهم بالحرية الفردية الا أنهم مرتبطين بعقد اجتماعي، وتسهم القوانين في حماية الفرد وصيانة هذا العقد في آن واحد- ومع ذلك فإن هناك شيئاً خارجياً يمارس سيطرة على الأفراد يمكن أن يطلق عليه التصور الجمعي.

وقد لاحظ دور كايم حينما قارن بين المجتمعات القديمة والمجتمعات الحديثة أن الأولى تتميز بوجود نوع من التضامن الآلي Mechanical، وأما الثانية فيسود فيها تضامن عضوي Orgaic، ويعتمد التضامن الآلي على التماثل بين أعضاء المجتمع، بينما يستمد التضامن العضوي أسسه من التباين، وحين يسود في المجتمع تضامن آلي يتميز الضمير الجمعي بقوة ملحوظة، ويشير الضمير الجمعي إلى المجموع الكلي للمعتقدات والعواطف العامة بين معظم أعضاء المجتمع والتي تشكل نسقاً له طابع متميز ويكتسب واقعاً ملموساً، فهو يدوم خلال الزمن ويدعم الروابط بين الاجيال ويعيش بين الافراد ويتخلل حياتهم، الا أنه يكتسب مزيداً من القوة والتأثير والاستقلال حيث يعد نتاجاً للتماثل الانساني.

ويصاحب نمو تقسيم العمل في المجتمع ظهور حيث التضامن العضوي بما يترتب على تقسيم العمل من تباين بين الافراد يعمل على أي نوع من التساند المتبادل في المجتمع، وينعكس على العقلية الانسانية والاخلاقيات، ويزداد التضامن العضوي رسوخاً بازدياد تقدم المجتمعات وتدعيمها للتقدم الاخلاقي الذي يؤكد القيم العليا والحرسه والاخاء والعدالة، وهذه التعاقدات لا تؤدي إلى الغاء القهر الاجتماعي لأنها تنطوي على عناصر محددة ومعروفة مقدماً مثلما يحدد القانون بعض الاعتبارات مثل "طول اليوم في العمل والآخر والظروف الفيزيكية" و لا يتركها للمتعاقدين، ومعنى ذلك أنه حتى في المجتمعات التي تعتمد على التضامن العضوي يظل للقهر الاجتماعي دور أساسي.

الانتحار والتيارات الاجتماعية:

وكان دوركايم يعتقد أنه إذا استطاع أن يثبت أن لعلم الاجتماع دوراً يلعبه في دراسة مثل هذا السلوك الفردي "الانتحار" فسوف يكون من السهل أن يتسع نطاق علم الاجتماع لدراسة العديد من جوانب السلوك وإخضاعها للتحليل السوسولوجي، ولأن المجتمع إذا اقتنع به في دراسة هذه

الظاهرة فإن علم الاجتماع سوف نتاح له فرصة جيدة ليحظى باعتراف المجتمع العلمي به، ومنطق التحليل الذي قدمه دور كايم مؤداه أن التباين أو التغيير في الضمير الجمعي يؤدي إلى تغيير في الظواهر الاجتماعية في مقدماتها التيارات الاجتماعية.

وقد اكد دوركايم على أهمية الدور الحاسم الذي تلعبه التيارات الاجتماعية كسبب للانتحار فيقول "يوجد داخل كل جماعة ميل جمعي إلى السلوك التوافقي وهذا الميل يخص الجماعة ككل ومصدره ميل كل فرد أكثر من كونه نتيجة له ويتشكل الميل الجمعي من تيارات الانانية أو الغيرية أو الانومي التي تنتشر في المجتمع، وهذه الاتجاهات تؤثر في الافراد وتدفعهم إلى الانتحار".

وقد حدد للانتحار أنماط أربعة هي:

١- الانتحار الاناني

٢- الانتحار الايثاري

٣- الانتحار الانومي

٤- الانتحار القدري

ويربط دوركايم بين كل نمط من هذه الانماط ودرجة التكامل السائدة في المجتمع ومقدار النظام فيشير مفهوم التكامل السائدة في المجتمع ومقدار النظام فيشير مفهوم التكامل إلى درجة المشاركة في المشاعر الجمعية، ويرتبط الانتحار الايثاري بدرجة عالية من التكامل، ويرتبط الانتحار الانومي بدرجة منخفضة من التكامل، ويرتبط الانتحار القدري بدرجة عالية من النظام. ويرى دوركايم أن تفكك المجتمع يؤدي إلى وجود تيارات من الاحباط وخيبة الامل فيكون الفرد أكثر ميلاً إلى الانتحار.

ومهما بلغت فردية الانسان فإنه يظل بداخله شئ جمعي فيتسبب الارهاق المرضي، والحزن في ارتفاع معدلات الانتحار الاناني فإن الاقدام على الانتحار الايثاري يستند إلى أمل في حياة أفضل بعد الموت ويؤدي النجاح المفاجئ إلى ابتعاد الفرد أو انفصاله عن الابنية الاجتماعية التقليدية التي ينتمي اليها ويؤدي كل ذلك إلى انهيار قوة ضبط الابنية الاجتماعية التقليدية ويصبح الفرد عرضة للتيارات الاجتماعية الانومية، وكذلك فإن زيادة النظام عن حد المألوف تحول إلى قهر يطلق تيارات سوداوية تؤدي بدورها إلى ارتفاع معدلات الانتحار القدري. وهذا يدل في النهاية على ان العوامل التي تدفع إلى الانتحار لا ترجع إلى التكوين السيكولوجي للفرد

بقدر ما هي نتيجة للاختلافات في البناء الاجتماعي وفي درجة التضامن الاجتماعي والامتثال لقواعد المجتمع.

الدين عند دوركايم:

يعتبر كتابه الصور الاولية للحياة الدينية آخر أعماله، وقد تعرض فيه لأكثر الديانات المعروفة بدائية وبساطة في المجتمعات البسيطة. وقد انتقد دوركايم التعريف العام للدين على أنه الاعتقاد في الله في القوى فوق الطبيعية ولكنه يرى أن الدين يضم مجموعة من المعتقدات أو الممارسات في نسق شامل يحقق القداسة للاشياء المحرمة، وتوجد هذه المعتقدات بين الأفراد والجماعات حيث يمكن أن تخلق مجتمعاً أخلاقياً تنقسم فيه الاشياء إلى مجموعتين مختلفتين هما العلماني Profane والمقدس Sacred، ويرى دوركايم أن الوظيفة الاساسية للدين هي خلق وتدعيم التضامن الاجتماعي، وينتهي إلى أن التصورات الدينية تعد ضرورات جمعية تعبر عن الحقائق الجمعية، والطقوس هي طريقة للسلوك.

رابعاً: ماكس فيبر

كان ماكس فيبر من أكثر ممثلي الكتابات الالمانية في العلوم الاجتماعية وقد قدم تعريفاً عاماً لعلم الاجتماع بأنه "العلم الذي يحاول الوصول إلى فهم تفسيري للفعل الاجتماعي من أجل الوصول إلى تفسير علمي لمجره ونتائجه".

ولقد بذل جهداً عظيماً لكي يتغلب التعارض القائم بين العلم الروحي وانتهى إلى أن العلوم الاجتماعية تختلف عن العلوم الطبيعية اختلافاً شديداً، وأن الاهتمامات الانسانية في العلوم الطبيعية تتجه نحو الضبط Control بينما تتجه في العلوم الاجتماعية نحو التقييم Valuation ومن ذلك يصبح مفهوم الثقافة ذاته مفهوماً قيماً، كما تصبح الوقائع الامبيريقية بالنسبة لنا ثقافة لأننا نربطها دائماً بالقيم.

إن صدق القيم يعتبر من قبيل الايمان والاعتقاد وليس من قبيل المعرفة، ومن هنا فقد ذهب فيبر إلى أنه يتعين على العلوم الاجتماعية أن تدرس القيم بشرط الاتفصل عنها المعايير والمثاليات التي تشتق منها الموجهات التي تضبط السلوك الواقعي، ومعنى ذلك أنه يجب أن تكون العلوم الاجتماعية بما في ذلك علم الاجتماع متحررة من القيم Value Free.

وكان فيبر يؤكد أن على علم الاجتماع بالرغم من أن موضوعه يجب أن يكون مقصوراً على دراسة العلاقات الاجتماعية في صورتها المجردة الا ان طبيعة هذه الدراسة تقتضي أن يسلم

الباحث بالعلوم الاجتماعية الاخرى. وهذا ما فعله فيبير حين درس العلاقات المتبادلة بين الظاهر الدينية والظواهر الاقتصادية في فترات تاريخية معينة.

ويمكننا أن نتعرض لأهم إسهامات ماكس فيبير في علم الاجتماع فيما يلي:

١- مقولة الفهم Verstehen (كأداة منهجية لتفسير السلوك):

ويذهب فيبير إلى أن الفهم على المستوى الذاتي للفاعل يمكن التحقق منه في صورتين:

أ- الأولى تتمثل في الفهم الذي يركز على الملاحظة المباشرة للمعنى الذاتي.

ب- الثانية وتتمثل في فهم الدافع أو التبرير الذي يقدمه الفاعل لسلوكه عن طريق ما يسميه فيبير عملية المشاركة الوجدانية Sympathy أي أننا علينا أن نتخيل الدافع الذي يكمن وراء الفعل الصادر عن الشخص أو الجماعة ثم نكشف ونحدد آيات الفعل التي سوف تكشف بدورها عن حالة الشعور التي تفترض ظهورها بظهور موقف معين.

والمسألة الاساسية في تفسير فيبير لمصطلح الفهم هم ما إذا كان يعتقد أنه من المناسب تطبيقه على الحالات الذاتية للأفراد الفاعلين أم أنه يمكن تطبيقه على الجوانب الذاتية للوحدات الكبرى عند تحليلها، وهناك من يرى أن الفهم يتضمن الجانبين "فهم الأشخاص الفاعلين وفهم الثقافة العامة التي يوجد داخلها هؤلاء الأشخاص" وقد ذكر مونش Munch على سبيل المثال:

أ- أنه كي نفهم الأفعال فهماً كاملاً يجب أن نحدد مدلول الفعل كما يقصده الفاعل.

ب- أن نتعرف على الإطار الذي يتم فيه الفعل ويستمد منه معناه.

وأكثر المعلومات التي يمكن الاعتماد عليها في تحديد عملية الفهم وبغيره من الادوات المنهجية الهامة نجدها في اعمال فيبير الاساسية وليس في عباراته العارضة من المنهج. وتركيز فيبير على الأطر البنائية الاجتماعية والثقافية للفعل يقودنا إلى وجهة النظر القائلة بأن الفهم عنده هو أداة للتحليل على المستوى الكبير وليس على المستوى الفردي.

٢- النموذج المثالي Ideal Type:

يذهب فيبير إلى أن هناك أنواع أخرى من الأفعال والعلاقات الاجتماعية يقتضي دراستها وجود أداة منهجية أطلق عليها فيبير النموذج المثالي أو الخالص.

ويعرف النموذج المثالي بأنه تصور **عقل** يتشكل من خلال الظهور أو وضوح سمة أو أكثر من صفات وخصائص الأشياء أو الظواهر موضع الملاحظة في الحياة الواقعية. وقدم لنا مجموعة من **تعريفات** النماذج المثالية أهمها:

أ- العلاقة الاجتماعية التي تمثل سلوكاً يصدر عن مجموعة من الفاعلين بما تتطوي عليه افعال الآخرين.

ب- الجماعة المنظمة وهي تمثل علاقة اجتماعية من خلالها يقوم أفراد معينون بمهمة تدعيم النظام في الجماعة يطلق عليها طبقاً لحدودها الإقليمية اصطلاح الجماعة الإقليمية المنظمة.

وإذا خضع أفرادها إلى ممارسات شرعية تقوم على ضبط ملزم يطلق عليها الجماعة التي تستند إلى ضبط ملزم وهكذا.

ويرى **فيبر** أن الأنماط المثالية تتكون من خلال ظواهر متوسطة الحجم والنطاق مثل الكالفينية Calvinism والتقوية Pietisim والمنهجية أو النظامية Methodism والتعميدية Baptisim.

ولا يمكن أن تصاغ الأنماط المثالية مرة واحدة وإلى الأبد، ذلك لأن المجتمعات تتغير باستمرار كما تتغير أيضاً اهتمامات علماء الاجتماع، ذلك فمن الضروري تكوين أنماط جديدة لتلائم هذه الحقيقة المتغيرة، وهذا يتمشى مع وجهة نظر **فيبر** القائلة بأنه لا توجد تصورات أو أنماط مطلقة في العلوم الاجتماعية.

وأهم شئ فيما يتعلق بالأنماط المثالية أنها أدوات أو وسائل موجهة ومساعدة وبالتالي مفيدة وهامة في البحوث الامبيريقية وفي مساعدتنا على فهم العالم الاجتماعي.

٣- العلية كأداة منهجية:

لقد كان **فيبر** يقصد بالعلية ببساطة إمكانية أن يتبع فعل معين ما أو يصاحب وقوعه وقوع فعل آخر. والشئ الهام الذي يجب أن نتذكره عن تفكير **فيبر** في العلية هو اعتقاده بأن المعارف العلية في العلوم الاجتماعية نظراً لأننا نستطيع فهم الحياة فهماً خاصاً. وكانت أفكار **فيبر** عن العلية وثيقة الصلة بمجهوداته لحل الصراع بين المعرفة الذاتية الفردية والمعرفة الموضوعية التعميمية بين هذه الكيانات أو الظواهر باعتبارها علاقات عشوائية وحسب، وقد اتخذ **فيبر** موقفاً وسطاً عبر عنه بمفهوم الاحتمال الموضوعي.

وذهب إلى أن التفسير السببي هو احتمال أن اشياء ستحدث أو تتكرر بطريقة معينة، وظهر هذا المفهوم في تعريفاته للعلاقة الاجتماعية والجماعة المنظمة والضبط الملزم وتعريفه للقانون والعرف.

فتعريف القانون هو احتمال أن يواجه الانحراف عن القاعدية القانونية بعقاب بدني أو سيكولوجي توقعه الجماعة التي تتولى المحافظة على هذه القاعدة.

والعرف عنده هو احتمال أن يظهر انحراف عن المعايير الاجتماعية كتعبير عام نسبياً وعملياً عند عدم الموافقة عليها، وهذه كلها تعريفات إجرائية تلائم البحوث الامبيريقية الحديثة.

٤ - ابواب السلطة Authority:

ويذهب فيبر إلى وجود ثلاثة أنماط من السلطة الشرعية هي:

أ- **السلطة العقلانية:** وتعتمد على قواعد معينة بها الأفراد وقد تتمثل هذه القواعد بنصوص دستور أو قواعد معينة غير شرعية يؤمن بها الافراد.

ب- **السلطة الكارزمية:** وهي تقوم على اساس وجود شخص يمتلك صفات معينة يعتقد بها الافراد المحكومين وهم يخضعون له على اساس اعتقادهم بصفاته الخارقة وقدراته الشخصية ومن امثلة ذلك الانبياء والقادة المشهورين والزعماء السياسيين الناجحين وشرعية هذه السلطة متوقفة على استمرارية هذه الصفات وإلا انهار النظام.

ج- **السلطة التقليدية:** وتستند على اعتقاد الافراد بوجود قواعد معينة لها قدسية أو قوة سحرية معينة بحيث يتعرض المخالف لها لعقاب دنيوي أو روعي، وتتمثل في السلطة الابوية أو سلطة رئيس القبيلة أو سلطة الأمير أو الملك على أفراد شعبه.

وهذه النماذج الثلاثة ما هي الا بناءات عقلية أراد فيبر أن يصوغ بها بعض النماذج السوسيولوجية الهامة.

٥ - القيم Values والبحث Research:

على الرغم من أن فيبر أدرك أن للقيم دوراً في بعض جوانب عملية البحث العلمي إلا انه يجب إبعاد التأثير بالقيم خلال جمع البيانات الواقعية في البحث، ويعني فيبر هذا أن نستخدم كل الاجراءات المعروفة في البحث العلمي كالملاحظة الدقيقة والمقارنة المنظمة. وترتبط وجهة نظر فيبر في أهمية الدلالة القيمية بوجهة نظره في التفرقة بين العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية.

ففي العلوم الطبيعية تستمد الافكار البحثية من النظرية المجردة، اما بالنسبة لعلماء الاجتماع فيقول فيبر أن عليهم أن يرجعوا إلى نسق القيم في المجتمع الذي يعيشون فيه. وينظر أغلب علماء الاجتماع الامريكيين إلى فيبر باعتباره من أنصار علم الاجتماع متحرراً من القيم وهم أنفسهم يميلون إلى ذلك ويجدون أنه من المفيد أن يستخدموا اسم فيبر لتدعيم وجهة نظرهم وتأكيد موقفهم، مع أن أعمال فيبر مليئة بالقيم من بدايتها إلى نهايتها.